الإمَام مُحَمّد بْنِ إِدْرِيسٍ الشَّافِعِي اللُّغَوِي والأَدِيْب (ت 204 هـ)

د . فوزي إبراهيم القرفة

قسم اللغة العربية –كلية الآداب – جامعة إجدابيا

مقدمة

الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله....وبعد

ثَمةَ جانب في شخصية الإمام الشافعي العلمية لم ينل حظه من العناية والاهتمام، وهو الجانب اللغوي والأدبي في حياة هذا الإمام الجليل ، وهذه محاولة ومقاربة لإماطة اللثام عن هذا الجانب لديه ، لِمَا رأيت من كثرة الروايات والأخبار في هذا السياق، تحتاج إلى تتبع واستقراء ، وأن تُفرد بالتصنيف...لأنها تختص بإمام جليل من أئمة الدين، كان "كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس "كما جاء في الأثر.

وأقيم هذا البحث على مبحثين:

الأول: في التعريف بالإمام الشافعي، اسمه، ونسبه ، ونشأته، وصفاته، وفضائله وأدبه في طلب العلم.

والثاني: في لغته، وفصاحته، ونماذج من مسائله اللغوية، وشخصيته الأدبية وموهبته الشعرية.

آمل أن أكون قد وُفقت في الكتابة عن هذا الموضوع، وأضفت شيئاً جديداً ينتفع به كل مهتم بسيرة الإمام الشافعي، وبالدراسات اللغوية والأدبية عموماً.

والله من وراء القصد، هو حسبي، عليه توكلت وإليه أنيب.

المبحث الأول

التعريف بالإمام الشافعي

اسمه ونسبه ونشأته: هو مُحَمَّد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد ابن هاشم ابن المطلب بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، نسيب رسول الله ﷺ وابن عمه، فالمطلب هو أخو هاشم والد عبد المطلب[1].

وُلد بغزّة سنة 150هـ، وقيل: بعسقلان بين قبائل يمنية من أخواله[2]، ثم إن أمه فاطمة بنت عبد الله الأزدية، خافت عليه أن يُغلب على نسبه القرشي الشريف، فحملته إلى مكة وهو ابن عشر سنين على الأرجح[3]. وهذا من توفيق الله وتهيئة الأسباب لهذا الإمام الجليل؛ إذ مَنّ الله عليه بأم لبيبة عاقلة، أرادت أن تحفظ لابنها نسبه الشريف؛ لكي لا يُغلب عليه، وقد رُوي في فضل النسب القرشي أحاديث، ترجم لها أحمد بن أبي بكر البوصيري بقوله: "باب في فضل قريش وما جاء في رأيها ومن أهان قريشياً وغير ذلك"[4]. لعل أم الإمام الشافعي كانت على دراية بفضل هذا النسب، أو أنّ الله ألقى في روعها أن ابنها مُحَمَّداً سيكون له شأن؛ روى الذهبي عن ابن عبد الحكم، قال: "لما حملت والدة الشافعي به، رأت كأن المشتري خرج من فرجها حتى انقض بمصر، ثم وقع في كل بلدة منه شظيّة فتأوله المعبرون: أنها تلد عالماً، يخص علمه أهل مصر، ثم يتفرق في البلدان"[5]. واجتمع للشافعي بركة مكان الولادة في بلاد الشام، وبركة مقام النشأة بمكة أرض الله الحرام، وشرف النسب المتصل بسيد الأنام عليه الصلاة والسلام.

عاش الشافعي بمكة يتيماً فقيراً، حفظ القرآن مبكراً، ولم يكن لأمه ما تعطيه للمحفَّظ لقاء تعليم ابنها، فرضي المعلم من الشافعي بأن يقوم مقامه في تحفيظ الصبيان. روى الذهبي عن الحميدي قال: "سمعت الشافعي يقول: كنت يتيماً في حجر أمي،

---

(1) ينظر: سير أعلام النبلاء – للذهبي (2: 19) تح: شعيب الأرناؤوط وآخرين – مؤسسة الرسالة.

(2) روى الحموي في معجم الأدباء: أن الشافعي قال: ولدت باليمن فخافت أمي علي الضيعة، فحملتني إلى مكة وأنا يومئذ ابن عشر أو شبيه بذلك، وتأول بعضهم قوله: باليمن بأرض أهلها وسكانها قبائل اليمن. وبلاد غزة وعسقلان كلها من قبائل اليمن وبطونها. قال الحموي: وهذا عندي تأويل حسن إن صحت الرواية، وإلا فلا شك أنه ولد بغزة وانتقل إلى عسقلان إلى أن ترعرع.

(3) ينظر: معجم الأدباء – للحموي (2: 339) دار الكتب العلمية، بيروت– 1991م.

(4) ينظر: إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (7: 314) دار الوطن – الرياض – ط 1 – 1999م.

(5) ينظر: سير أعلام النبلاء (19: 5).

ولم يكن لها ما تعطيني للمعلم، وكان المعلم قد رضي مني أن أقوم على الصبيان إذا غاب، وأخفف عنه"[1].

وتدل مجموع الروايات على أنّ معالم النباهة والذكاء ظهرت على الإمام الشافعي في سن مبكرة، فحفظ القرآن، وقدراً من أحاديث رسول الله ﷺ، وكان يحفظ سمعاً، ثم يكتب ما حفظه على الخزف والجلود وظهور أوراق الديوان[2].

وحياة الفاقة والعوز واليتم كثيراً ما تجعل المرء يسعى إلى المعالي بهمة واجتهاد، لا سيما إذا انضم إليها نسب شريف، وهذه الخلال توافرت للإمام الشافعي، قال الشيخ مُحَمَّد أبو زهرة بهذا الصدد: "والنشأة الفقيرة مع النسب الرفيع تجعل الناشئ ينشأ على خلق قويم ومسلك كريم...ذلك بأن علو النسب وشرفه يجعل الناشئ منذ نعومة أظفاره يتجه إلى معالي الأمور، ويجافي عن سفسافها، ويرتفع عن الدنايا، ويسعى إلى المجد بهمة وجلد، ثم إن نشأته فقيراً، مع ذلك الطموح بنسبه يجعله يحس بإحساس الناس، ويندمج في أوساطهم، ويتعرف خبيئة نفوسهم، ودخائل مجتمعهم، ويستشعر بمشاعرهم، وذلك أمر ضروري لكل من يتصدى لعمل يتعلق بالمجتمع وما يتصل به في معاملاته وتنظيم أحواله وتوثيق علائقه"[3].

صفاته وفضائله:

إذا اصطفى الله عبداً من عباده جمع فيه الصفات الحميدة، وأعطاه حظاً وافراً من الخصال الكريمة، ووهبه خُلُقاً، وخَلْقاً جميلاً، وهذه الأمور مجتمعة، حبى الله بها إمامنا ﷺ وأرضاه.

أعطاه الله من جمال الصورة، وبهاء المحيّا ما ملأ به قلوب عباده حباً له، وقَبولا، روي عن المزني قال: "ما رأيت أحسن وجهاً من الشافعي رحمه الله"[4]. وعن إبراهيم بن برانة: "كان الشافعي جسيماً طوالاً نبيلاً"[5].

---

[1] نفسه (19: 6).

[2] نفسه (19: 7).

[3] الشافعي – حياته وعصره (ص16) دار الفكر العربي – 1978م.

[4] سير أعلام النبلاء – للذهبي (10: 11).

[5] نفسه (10: 39).

وعن ابن راهويه قال: "كنت مع أحمد بن حنبل بمكة فقال لي: تعال حتى أريك رجلاً لم تر عيناك مثله، فأراني الشافعي"[1].

وقال أيوب بن سويد الرملي: "ما ظننت أني أعيش حتى أرى مثل الشافعي"[2].

وعُدّ الإمام الشافعي من المجددين الذين يقيضهم الله للناس على رأس كل مئة سنة، يجدد الله بهم للناس دينهم؛ أي يحيي بهم ما اندثر من السنن، ويهدي بهم من زاغ عن سبل الحق. روي عن الإمام أحمد، من طرق عنه قوله: "إن الله يقيض للناس في رأس كل مئة من يعلمهم السُّنن، وينفي عن رسول الله ﷺ الكذب، قال: فنظرنا، فإذا في رأس المئة عمر بن عبد العزيز، وفي رأس المئتين الشافعي"[3].

وروى مُحَمَّد بن هارون الزنجاني قال: "حدثنا عبد الله بن أحمد قلت لأبي: أي رجل كان الشافعي، فإني سمعتك تكثر الدعاء له؟ قال يابني: كان كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس، فهل لهذين من خلف، أو منهما عوض"[4].

وكان ﷺ من أكثر الناس اتباعاً للسنة وتعظيماً لها، فإذا ما صحّ عنده الحديث أخذ به وسلم إليه، وإن كان خلاف ما رآه، ومن أقواله في ذلك:

* "كل ما قلته، فكان من رسول الله ﷺ خلاف قولي مما صحّ، فهو أولى ولا تقلدوني"[5].

* وقال له رجل: "نأخذ بهذا الحديث يا أبا عبد الله؟ فقال: متى رويت عن رسول الله حديثاً صحيحاً ولم آخذ به، فأشهدكم أن عقلي قد ذهب"[6].

* قال الربيع: "وسمعته يقول: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إذا رويت عن رسول الله ﷺ حديثاً لا أقول به"[7].

* وقال فيما روي عنه: "إذا صح الحديث فهو مذهبي، وإذا صح الحديث فاضربوا بقولي الحائط"[8].

وأما عن سخائه فهو كما قال عبد الله بن الزبير الأسدي:

---

[1] صفة الصفوة – لابن الجوزي (2: 250) تحـ: مُحَمَّد فاخوري، ومُحَمَّد رواس – دار المعرفة – بيروت – ط 2 – 1979م.

[2] حلية الأولياء (4: 88) دار صادر – بيروت.

[3] تاريخ بغداد – للخطيب البغدادي (11: 61) دار الكتب العلمية – بيروت.

[4] نفسه (4: 65).

[5] سير أعلام النبلاء – للذهبي (19: 23).

[6] نفسه (19: 23).

[7] نفسه (19: 24).

[8] نفسه (19: 54).

تراه إذا ما جئتَه متهلِّلاً كأنَّك تعطيه الذي أنت نائلُهْ

ولو لم يكن في كفّه غيرُ رُوحه لجاد بها فليتَّقِ اللهَ سائله

يقول أبو ثور: "قلّ ما كان يمسك الشافعي الشيء من سماحته"[1]. وقال عمرو بن سوار: "كان الشافعي أسخى الناس على الدنيا والدرهم والطعام"[2].

وأما عن زهده؛ فقد كان رحمه الله زاهداً معرضاً عن الدنيا، يكفيه قليلها ولا يتبع نفسه وهواه ما انزوى منها عنه، حدث الربيع قال: "سمعت الشافعي يقول: ما شبعت منذ ست عشرة سنة إلا مرة، فأدخلت يدي فتقيأتها؛ لأن الشبع يثقل البدن، ويقسي القلب، ويزيل الفطنة، ويجلب النوم، ويضعف عن العبادة"[3].

وكان يقول فيما روي عنه: "عليك بالزهد، فإن الزهد على الزاهد أحسن من الحلي على المرأة الناهد"[4].

من الصفات والفضائل التي عُرف بها الإمام الشافعي ﷺ صفة (العقل)؛ وللعقل في الإسلام منزلة رفيعة، ومكانة عظيمة، وأجمع الناس في كل العصور، وعلى مر الدهور على أن العقل هو أجل نعمة تفضل بها المولى سبحانه على خلقه.

وشهد لرجاحة عقل الشافعي القاصي والداني، وخصمه قبل صديقه، قال بشر المريسي – وهو من المتكلمين – لبعض تلامذة الشافعي بعد أن ناظره وقطعه: "ليس هذا من كيسكم، هذا من كلام رجل رأيته بمكة؛ معه نصف عقل أهل الدنيا"[5]. يقصد الشافعي.

أما شيخه الإمام مالك فقد تفطن لتعقله وذكائه عندما جاءه غلاماً ليقرأ عليه الموطأ؛ روى عبد الرحمن بن مهدي قال: "سمعت مالكاً يقول: ما يأتيني أفهم من هذا الفتى؛ يعني الشافعي"[6]. وقال أبو عبيد: "ما رأيت أحداً أعقل من الشافعي"[7].

---

[1] سير أعلام النبلاء – للذهبي (10: 37).
[2] نفسه (10: 37).
[3] نفسه (19: 24، 25).
[4] نفسه (19: 25).
[5] نفسه (19: 26).
[6] سير أعلام النبلاء – للذهبي (19: 31).
[7] نفسه (19: 9).

وقال يونس بن عبد الأعلى عن الشافعي: "لو جُمعت أمة لوسعهم عقله"[1].

وسُئل ابن راهويه: "كيف وضع الشافعي هذه الكتب كلها ولم يكن كبير السن؟ فقال: عجّل الله له عقله لقصر عمره"[2].

وروى أبو نعيم: "قيل للشافعي: أخبرنا عن العقل يولد به المرء؟ فقال: لا، ولكنه يُلقح من مجالسة الرجال، ومناظرة الناس، قال الشيخ رحمة الله عليه: وكان الشافعي لطيف النظر، عجيب الحذر، حصيفاً في الفكر، نجيباً في العبر"[3].

وسيرته الزكية مفعمة بمظاهر تعقله، من ذلك سيرته مع خصومه ومخالفيه، فقد كان الحق بغيته، أنى كان مصدره، ولا يزهو بالظفر بمخالفيه، وهذه صفة قلّ أن تجدها عند طلبة العلم، الذين يتعنتون ولا يسلّمون للحق، ويتبعون أهواءهم.

روى أبو الوليد موسى بن أبي الجارود عن الإمام الشافعي قوله: "ما ناظرت أحداً قط إلا أحببت أن يُوفق ويسدد ويُعان، ويكون عليه رعاية من الله وحفظ، وما ناظرت أحداً إلا لم أبال بيّن الله الحق على لساني أو لسانه"[4].

وما أروع هذا الإمام في تعامله مع مخالفيه، فلا يمنعه الخلاف معهم من الإحسان إليهم وإنصافهم، روى يونس الصدفي قال: "ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة؟ وهذا يدل على كمال عقل هذا الإمام وفقه نفسه، فما زال النظراء يختلفون"[5]. ولعمر الله إنها لأخلاق الأنبياء.

ومن مظاهر تعقله مداراة الناس في التعامل معهم، قال فيما روي عنه: "الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط"[3].

ومن نوابغ كلمه ﷺ في السياق ذاته: "رضى الناس غاية لا تُدرك، وليس إلى السلامة منهم سبيل، فعليك بما ينفعك فالزمه"[7].

---

[1] نفسه.

[2] آداب الشافعي – للرازي (ص70).

[3] حلية الأولياء – لأبي نعيم (9: 121).

[4] نفسه (9: 118).

[5] الاحتجاج بالشافعي – للخطيب البغدادي (ص31) تح: خليل ملا خاطر – المكتبة الأثرية – باكستان.

[3] سير أعلام النبلاء – للذهبي (19: 70).

[7] نفسه (19: 70).

وله نصيحة خالدة في أدب التعامل مع الإخوان والأصدقاء أسداها لأحد تلاميذه، روى يونس بن عبد الأعلى قال: "قال لي الشافعي: يا يونس: إذا بلغك عن صديق لك ما تكرهه، فإياك أن تبادره بالعداوة وقطع الولاية، فتكون ممن أزال يقينه بشك، ولكن ألقه، وقل له: بلغني عنك كذا وكذا، واحذر أن تسمي له المبلغ، فإن أنكر ذلك فقل له: ماذا أردت بما بلغني عنك؟ فإن ذكر ما له وجه من العذر فاقبل منه، وإن لم تر لذلك وجهاً لعذر، وضاق عليك المسلك، فحينئذ أثبتها عليه سيئة، ثم أنت في ذلك بالخيار؛ إن شئت كافأته بمثله من غير زيادة، وإن شئت عفوت عنه، والعفو أقرب للتقوى، وأبلغ في الكرم، لقوله تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} [الشورى: 40]، فإن نازعتك نفسك بالمكافأة فاذكر فيما سبق له لديك من الإحسان فعدها، ثم أبدر له إحساناً بهذه السيئة، ولا تبخسن باقي إحسانه السالف بهذه السيئة، فإن ذلك الظلم بعينه، يا يونس: إذا كان لك صديق فشد يديك به فإن اتخاذ الصديق صعب، ومفارقته سهل"[1].

توفي الإمام الشافعي رحمه الله يوم الجمعة آخر يوم من رجب سنة (204 هـ). وبموته رزئ الدين برزية، وثلم في الإسلام ثلمة، ولله در القائل:

لعمرك ما الرزية فقد مال ولا شاةٌ تموت ولا بعير

ولكـن الرزية فقد قـرمٍ يموت بموته بشرٌ كثير

طلب العلم وآدابه عند الإمام الشافعي:

إذا أراد الله بعبده خيراً غرس في قلبه حب العلم، قال النبي ﷺ: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين"[2].

والعلم هو أشرف وأجمل ما يتحلى به المرء من حميد الخلال، ولا يرزق حبه إلا من اصطفى الله قلبه وأودع فيه محبة العلم، أولئكم أرباب القلوب السليمة، والهمم الشريفة، وللإمام عبد القاهر الجرجاني نص جليل في فضل العلم وأهله قال رحمه الله: "وبعدُ... فإنّا إذا تصفَّحْنا الفضائلَ لنعرفَ منازِلَها في الشرَّف، ونتبيَّنَ مواقِعَها منَ العِظَم، ونعلمَ أيُّ أحق منها بالتّقَديم ، وأسبقُ في استيجابِ التعَّظيم ، وجَدْنا العِلمَ أَوْلاها بذلك ، وأَوَّلها هنالك إذ لا شرَف إلا وهو السّبيلُ إليه، ولا خيرَ إلا وهو الدَّليلُ عليه، ولا مَنْقَبَة إلا وهو ذُروتُها وسَنامُها، ولا مَفْخرةَ إلا وبهِ صِحّتُها وتَمامُها، ولا حسنَةَ إلا وهو مِفتاحُها، ولا مَحْمَدةَ إلا ومنه يَتَّقدُ مصباحُها، هو الوَفيُّ إذا خانَ كلُّ صاحبٍ، والثِّقَةُ إذا لم يُوثقْ بناصحٍ. لولاهُ لما بانَ الإنسانُ من سائرِ الحيوانِ إلاّ بتخطيط صُورتِه

[1] صفة الصفوة – لابن الجوزي (2: 253).

[2] صحيح البخاري (1: 25) رقم (71). تحـ: محمد زهير، دار طوق النجاة، ط 1، 1422هـ.

وهيأةِ جسمِهِ وبنيتِه، لا ولا وَجدَ إلى اكتسابِ الفضلِ طريقاً، ولا وُجِدَ بشيءٍ منَ المحاسنِ خليقاً، ذاكَ لأنَّا وإنْ كُنا لا نصلُ إلى اكتسابِ فضيلةٍ إلا بالفعلِ، وكانَ لا يكونُ فعلٌ إلا بالقُدرة، فإنّا لم نَرَ فعلاً زانَ فاعلَهُ وأوجبَ الفضلَ له، حتى يكونَ عنِ العلم صَدَرُهُ، وحتّى يتبيَّن مَيسَمُه عليه وأثرُه. ولم نَرَ قدرةً قطُّ أَكْسَبَتْ صاحَبَها مَجداً، وأفادتْه حَمداً، دونَ أن يكونَ العلمُ رائدَها فيما تطلُبُ، وقائدَها حيثُ يَؤمُّ ويذهبُ، ويكونَ المصرَّفَ لِعنانِها، والمقلِّبَ لها في مَيْدانِها، فهي إذن مفتقرةٌ في أن تكونَ فضيلةً إليه، وعيالٌ في استحقاقِ هذا الاسم عليه، وإذا هيَ خلتْ منَ العِلم أو أبتْ أن تَمْتثلَ أمرَهُ وتَقْتفيَ أثره ورسَمَهُ، آلتْ ولا شيءَ أحشدُ للذَّمِّ على صاحبِها منها، ولا شَيْنَ أشَيْنُ مِن إعمالِه لها"[1].

وأما إمامنا الشافعي فقد حَبّب الله إليه العلم وكان يقول: "كانت نَهْمتي في الرمي وطلب العلم، فنلت من الرمي حتى كنت أصيب من عشرة عشرة، وسكت عن العلم، – قال الراوي: فقلت: أنت والله في العلم أكبر منك في الرمي"[2].

وروى المزني: "قيل للشافعي: كيف شهوتك للعلم؟ قال: أسمع بالحرف مما لم أسمعه، فتود أعضائي أن لها أسماعاً تتنعم به مثل ما تنعمت الآذان به، فقيل له: فكيف طلبك له؟ قال: طلب المرأة المضلة ولدها، ليس لها غيره"[3].

أخذ العلم في مكة عن مسلم بن خالد الزنجي (ت180هـ)، وداود بن عبد الرحمن العطار، وعمه مُحَمَّد بن علي بن شافع، وسفيان بن عيينة، وعبد الرحمن بن أبي بكر المليكي، وسعيد بن سالم، والفضيل بن عياض.

هؤلاء أشهر من روى عنهم في مكة، ثم خرج إلى البادية، ولزم قبيلة هذيل أفصح العرب، قال الشافعي فيما روي عنه: "ثم إني خرجت عن مكة فلزمت هذيلاً في البادية أتعلم كلامها، وآخذ طبعها، وكانت أفصح العرب، قال: فبقيت فيهم سبع عشرة سنة، أرحل برحيلهم، وأنزل بنزولهم"[4].

ثم رجع إلى مكة واشتغل بالأدب ورواية الشعر وأخبار العرب وأيامهم، إلى أن اجتمع مع بعض أبناء عمومته من الزبيريين فقال له: "يا أبا عبد الله عزّ علي ألا يكون مع هذه اللغة وهذه الفصاحة والذكاء فقه، فتكون قد سدت أهل زمانك، فقلت: من بقي نقصد؟ فقال لي: مالك بن أنس سيد المسلمين يومئذ قال: فوقع في قلبي"[5].

---

[1] دلائل الإعجاز (ص4، 5) تح: محمود شاكر، دار المدني – جدة – ط 3 – 1992م.

[2] سير أعلام النبلاء – للذهبي (19: 7).

[3] آداب الشافعي – للرازي (ص22) تح: عبد الغني عبد الخالق – مكتبة الخانجي – القاهرة – ط 3 – 2001م.

[4] معجم الأدباء– للحموي (2: 340).

[5] نفسه (2:340).

فكان له في السفر إلى المدينة خيرا الدنيا والآخرة، ثم ما للسفر من فوائد جمة، ومن شعره رحمه الله في هذا المعنى:

ما في المقامِ لذي عقلٍ وذي أدبِ مِنْ رَاحَةٍ فَدعِ الأَوْطَانَ واغْتَرِبِ

سَافِرْ تجِدْ عِوَضاً عمَّن تفارقهُ وَانْصِبْ فَإنَّ لَذِيذَ الْعَيْشِ فِي النَّصَبِ

إني رأيتُ وقوفَ الماء يفسدهُ إنْ سَاحَ طَابَ وَإنْ لَمْ يَجْرِ لَمْ يَطِبِ

والأسدُ لولا فراقُ الأرض ما افترست والسَّهمُ لولا فراقُ القوسِ لم يصب

والشمس لو وقفت في الفلكِ دائمةً لَمَلَّهَا النَّاسُ مِنْ عُجْمٍ وَمِنَ عَرَبِ

والتِّبْرَ كالتُّرْبَ مُلْقَىً في أَمَاكِنِهِ والعودُ في أرضه نوعً من الحطب

فإن تغرَّب هذا عزَّ مطلبهُ وإنْ تَغَرَّبَ ذَاكَ عَزَّ كالذَّهَبِ[1]

ومن طريف ما روي عن الشافعي بشأن التغرّب والسفر قوله: "لا ينبل قرشي بمكة ولا يظهر أمره حتى يخرج منها، وذلك أن النبي ﷺ: لم يظهر أمره حتى خرج من مكة"[2].

وقد روى أهل السير خبر وفود الشافعي على الإمام مالك نورده برمته لما فيه من عظة وعبرة، قال الشافعي: "دخلت إلى والي مكة وأخذت كتابه إلى والي المدينة وإلى مالك بن أنس قال: فقدمت المدينة فأبلغت الكتاب إلى الوالي، فلما أن قرأه قال: يا فتى أن أمشي من جوف المدينة إلى جوف مكة حافياً راجلاً أهون علي من المشي إلى باب مالك بن أنس، فلستُ أرى الذل حتى أقف على بابه، فقلت: أصلح الله الأمير، إن رأى الأمير يوجه إليه ليحضر، قال: هيهات، ليت أني إذا ركبت أنا ومن معي وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجتنا، قال: فواعدته العصر وركبنا جميعاً، فوالله لكان كما قال: لقد أصابنا من تراب العقيق، قال: فتقدم رجل فقرع الباب فخرجتْ إلينا جارية سوداء، فقال لها الأمير: قولي لمولاك إني بالباب، قال: فدخلت فأبطأت ثم خرجت فقالت: إن مولاي يقرئك السلام ويقول: إن كانت مسألة فارفعها في رقعة يخرج إليك الجواب، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرفْ، فقال لها: قولي له: إن معي كتاب والي مكة إليه في حاجة مهمة، قال: فدخلت وخرجت وفي يدها كرسي فوضعته ثم إذا أنا بمالك قد خرج وعليه المهابة والوقار، وهو شيخ طويل مسنون اللحية، فجلس وهو متطلس فرفع إليه

[1] ديوان الشافعي (ص25) تح: مُحَمَّد سليم – مكتبة ابن سينا – القاهرة.

[2] حلية الأولياء – لأبي نعيم : 340.

الوالي الكتاب، فبلغ إلى هذا: إن هذا رجل من أمره وحاله...فتحدثه وتفعل وتصنع..، رمى بالكتاب من يده ثم قال: سبحان الله، أوصار علم رسول الله ﷺ يؤخذ بالوسائل؟ قال: فرأيت الوالي وقد تهيبه أن يكلمه فتقدمت إليه، وقلت: أصلحك الله، إني رجل مطلبي ومن حالي وقصتي، فلما أن سمع كلامي، نظر إلي ساعة، وكانت لمالك فراسة فقال لي: ما اسمك؟ قلت: مُحَمَّد، فقال لي يا مُحَمَّد: اتق الله واجتنب المعاصي، فإنه سيكون لك شأن من الشأن، ثم قال: نعم وكرامة، إذا كان غداً تجيء ويجيء من يقرأ لك، قال: فقلت أنا أقوم بالقراءة، قال: فغدوت عليه وابتدأت أقرأه ظاهراً والكتاب في يدي، فكلما تهيبت مالكاً وأردت أن أقطع أعجبه حسن قراءتي وإعرابي فيقول: يا فتى زد حتى قرأته في أيام يسيرة، ثم أقمت بالمدينة حتى تُوفي مالك بن أنس"[1].

تأمل ما كان للعلماء من هيبة ومكانة عظيمة في نفوس الناس، لصيانتهم علم رسول الله ﷺ فأعلى الله محلهم ، ورفع قدرهم ، ووضع لهم المهابة والتوقير في قلوب العباد. وعندما أضاع أهل العلم علمهم ، واتخذوه وسيلة للوصول إلى مآرب دنيوية، وتعلم ذلك العلم قوم من أذلة الخلق ، وأتوا به الملوك والأمراء ، لينالوا الحظوة والرفعة الدنيوية ، واجتمع القوم على المعصية ، أذلهم الله ، ونزع مهابتهم وتوقيرهم من قلوب عباده. يقول القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في هذا المعنى:

ولم أبذلن في خدمة العلم مهجتي لأخدم من لاقيت لكن لأُخدما

أأشقى به غرساً وأجنيه ذلة إذن فاتباع الجهل قد كان أسلما

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعُظّما

ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما

ثم انظر إلى شغف الشافعي بالعلم، وتذلله في تحصيله، والتوسل بأي وسيلة للظفر به، قال فيما روي عنه: "لا يطلب هذا العلم أحد بالمال وعز النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذلّة النفس، وضيق العيش، وخدمة العلم أفلح"[2].

فكان ﷺ مخلصاً للعلم، محباً لأهله، متجرداً من اتباع الهوى، متبعاً للحق والصدق، روي عنه أنه قال: "وددت أن الناس تعلموا هذا العلم -يعني كتبه -على أن لا يُنسب إليّ منه شيء"[3].

---

[1] معجم الأدباء – لياقوت الحموي (2: 340).

[2] جامع بيان العلم – لابن عبد البر (1: 472) دار الفكر – بيروت – 1984م.

[3] سير أعلام النبلاء – للذهبي (19: 18).

وقال رحمه الله: "ما ناظرت أحداً على الغلبة، إلا على الحق عندي"[1]. وقال: "ما ناظرت أحداً إلا على النصيحة"[2].

ومن معانيه الحكيمة قوله: "ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلهما مني إلا هبته واعتقدت مودته، ولا كابرني على الحق أحد ودافع الحجة إلا سقط من عيني"[3].

فكان باحثاً عن الحق، متجرداً من اتباع الهوى، ولا يفخر على خصومه، ولا يزهو بالظفر بمخالفيه ومناظريه، بل يتمنى أن يجري الله الحق على ألسنتهم، وأن يُسددوا، ويكون الحق بغيتهم ورايتهم، قال فيما روي عنه: "ما ناظرت أحداً قط إلا أحببت أن يُوفق ويسدد ويُعان، ويكون عليه رعاية من الله وحفظ، وما ناظرت أحداً إلا ولم أبالِ بيّن الله الحق على لساني أو لسانه"[4].

وكان مُجِلاً لأهل العلم، معترفاً لهم بالفضل، يعرف لهم قدرهم، قال فيما روي عنه: "إذا رأيتُ رجلاً من أصحاب الحديث، فكأني رأيت رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ...جزاهم الله خيراً، فهم حفظوا لنا الأصل، فلهم علينا فضل"[5].

المبحث الثاني

الإمام الشافعي اللغوي والأديب

لغته وفصاحته:

وصف أبو منصور الهروي فصاحة وبيان الشافعي بقوله: "وألفيت أبا عبد الله مُحَمَّد ابن إدريس الشافعي أنار الله برهانه، ولقّاه رضوانه، أثقبهم بصيرة، وأبرعهم بياناً، وأغزرهم علماً، وأفصحهم لساناً، وأجزلهم ألفاظاً، وأوسعهم خاطراً، فسمعت مبسوط كتبه، وأمهات أصوله من بعض مشايخنا، وأقبلت على دراستها دهراً، واستعنت بما استكثرته من علم اللغة على تفهمها؛ إذ كانت ألفاظه رحمه الله عربيه محضة، ومن عجمة المولدين مصونة"[6].

---

[1] نفسه (19: 23).

[2] نفسه (10: 30).

[3] صفة الصفوة – لابن الجوزي (2: 251).

[4] نفسه (2: 251).

[5] سير أعلام النبلاء – للذهبي (19: 54).

[6] الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي – لأبي منصور الأزهري الهروي (ص33، 34) تح: مُحَمَّد الألفي – وزارة الأوقاف – الكويت – ط 1، 1399هـ.

ولهذه الفصاحة أسباب ذكرها كل من ترجم له، أو وصف فصاحته وبيانه، فبعد أن حفظ القرآن اشتغل دهراً من حياته بتعلم العربية قبل طلب علوم الشريعة، لأن العربية هي الوسيلة والمفتاح لكل علم. قال الشافعي فيما رُوي عنه: "ما أردت بها – يعني العربية والأخبار – إلا للاستعانة على الفقه"[1].

خرج الشافعي إلى البادية حيث النبع الصافي للفصاحة والبيان، واختار من بين القبائل العربية قبيلة (هذيل) فلزمها يتعلم كلامها، ويأخذ بطبعها، وينزل بنزولها، ويرحل برحيلها، ويحفظ مأثورها وديوانها[2].

وقبيلة هذيل من أفصح القبائل العربية إن لم تكن أفصحها على الإطلاق، ويرجع نسبها إلى هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار، وفي هذيل بطنان كبيران: سعد بن هذيل، ولحيان بن هذيل. فأتى الشافعي على شعر هذيل حفظاً، روى الأصمعي قال: "صححت أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له: مُحَمَّد بن إدريس الشافعي"[3].

ثم عاد الشافعي إلى مكة بعد أن قضى فترة زمنية ليست بالقصيرة بين ظهراني الهذليين، واشتغل بالأدب والشعر وروايته، قبل أن يتحول إلى طلب علوم الشريعة.

ويذكر الرواة خبراً طريفاً لهذا التحول قال الشافعي: "كنت امرأ أكتب الشعر فآتي البوادي فأسمع منهم، فقدمت مكة، فخرجت وأنا أتمثل بشعر للبيد، وأضرب قدمي وحشي بالسوط، فضربني رجل من ورائي من الحجبة، فقال: رجل من قريش ثم ابن المطلب، رضي من دينه ودنياه أن يكون معلِّماً، ما الشعر إذا استحكمت فيه فعدت معلما؟ تفقه يعلك الله، فنفعني الله بكلام ذلك الحجبي" [4].

وإذا رجع بنا القول إلى فصاحة وبيان الشافعي: فقد شهد لفصاحته كل من عاصره أو ترجم له. روي عن بشر المريسي – وهو من المتكلمين خصوم الشافعي – قدم الحجاز فالتقى بالشافعي فقال فيما روي عنه: "لقد رأيت بالحجاز رجلاً ما رأيت مثله سائلاً ولا مجيباً"[5].

---

[1] سير أعلام النبلاء – للذهبي (19: 58).
[2] ينظر: معجم الأدباء – للحموي (2: 340).
[3] نفسه (3: 345).
[4] سير أعلام النبلاء – للذهبي 19: 57.
[5] نفسه (9: 95).

وعن محمود المصري قال: "سمعت ابن هشام يقول: جالست الشافعي زماناً فما سمعته تكلم بكلمة إلا اعتبرها المعتبر، ولا يجد كلمة في العربية أحسن منها، وسمعت ابن هشام يقول: الشافعي كلامه لغة يُحتج بها"[1].

وعن الحسن بن مُحَمَّد الزعفراني قال: "كان قوم من أهل العربية يختلفون إلى مجلس الشافعي معنا، ويجلسون ناحية، قال: فقلت لرجل من رؤسائهم: إنكم لا تتعاطون العلم فلم تختلفون معنا؟ قالوا: نسمع لغة الشافعي"[2].

وكان يخاطب طبقات الناس على قدر ما تفهم من كلامه، ولو خاطبهم بعربيته وفصاحته لم يُفهم كلامه. قال الربيع: "لو رأيت الشافعي وحسن بيانه وفصاحته لعجبت منه، ولو أنه ألّف هذه الكتب على عربيته؛ التي كان يتكلم بها معنا في المناظرة لم يُقدر على قراءة كتبه؛ لفصاحته وغرائب ألفاظه، غير أنه كان في تأليفه يجتهد في أن يوضح للعوام"[3].

ويقول يونس بن عبد الأعلى: "كان الشافعي يكلمنا بقدر ما نفهم عنه، ولو كلمنا بحسب فهمه ما عقلنا عنه"[4]. ويقول الربيع بن سليمان: "كان الشافعي والله لسانه أكبر من كتبه، ولو رأيتموه لقلتم إن هذه ليست كتبه"[5].

وهذا من فقهه وفهمه لمعادن الفصاحة والبيان، فقد كان يخاطب مستمعيه بحسب طبقتهم، وطاقاتهم في الفهم، وهذا ما يسميه البلاغيون – مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

وكانت بلاغته وفصاحته أظهر ما تكون عند المناظرة، فقد كان يسمع منه مخالفوه ومناظروه بلاغة عجيبة، وفصاحة عظيمة، وبياناً ساحراً، وكان يَظهر على مناظريه بالحجة والبرهان، قال مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد الحكم: "ما رأيت أحداً يناظر الشافعي إلا رحمته، مما أرى من مقامه بين يديه"[6].

---

[1] معجم الأدباء – للحموي (2: 345).

[2] نفسه (2: 345).

[3] آداب الشافعي – للرازي (ص137).

[4] حلية الأولياء- لأبي نعيم (9: 136).

[5] سير أعلام النبلاء – للذهبي (19: 29).

[6] جامع بيان العلم – لابن عبد البر (3: 206).

وقال آخر: "لو رأيت الشافعي يناظر لظننت أنه سبع يأكلك"[1].

وكان لمنطقه حلاوة، ولألفاظه عذوبة، "كأن صوته صوت صَنج وجرس من حسن صوته"[2].

يقول يونس بن عبد الأعلى: "ما كان الشافعي إلا ساحراً، ما كنا ندري ما يقول إذا قعدنا حوله، كأنّ ألفاظه سكر، وكان قد أوتي عذوبة منطق، وحسن بلاغة، وفرط ذكاء، وسيلان ذهن، وكمال فصاحة، وحضور حجة"[3].

وشهد لفصاحته أعلم الناس بمعادن البيان؛ أعني الشيخ المعتزلي أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت255هـ) شيخ الأدب ولسان العرب قال: "نظرت في كتب هؤلاء النبغة الذين نبغوا في العلن، فلم أر أحسن تأليفاً من المطلبي، كأن لسانه ينظم الدرر"[4].

ولم يسمع منه لحن، ولا خروج على سنن العرب في كلامها، قال عبد الملك بن هشام اللغوي: "طالت مجالستنا للشافعي، فما سمعتُ منه لحنة قط"[5]. وقال أحمد بن سريج الرازي: "ما رأيت أحداً أفوه ولا أنطق من الشافعي"[6].

وكان لأهل العربية نصيب في مجلسه، يجتمعون إليه كاجتماع أهل التفسير والفقه والحديث، حدث الربيع بن سليمان قال: "كان الشافعي رحمه الله يجلس في حلقته إذا صلى الصبح فيجيئه أهل القرآن، فإذا طلعت الشمس قاموا، وجاء أهل الحديث فيسألونه تفسيره ومعانيه، فإذا ارتفعت الشمس قاموا، فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر، فإذا ارتفع الضحى تفرقوا، وجاء أهل العربية والعروض والنحو والشعر، فلا يزالون إلى قرب انتصاف النهار، ثم ينصرف ﷺ"[7].

فكانت الفصاحة لديه طبيعة وفطرة فُطر عليها؛ لا سيما أنه من قريش أفصح الناس بالعربية، ومن طرائف أخباره بهذا الصدد، والذي ينم عن فصاحته، رده على الرشيد عندما سأله عن علمه وبصره بالعربية قال: "هي ميداننا، وطباعنا بها قُومت، وألسنتنا بها

---

(1) نفسه (3: 207).

(2) سير أعلام النبلاء – للذهبي (19: 35).

(3) نفسه (19: 35).

(4). (5) ديوان الشافعي (ص12) بعناية: محمد الزغبي – دار الجيل – بيروت.

(5) سير أعلام النبلاء – للذهبي (19: 35).

(6) نفسه (19: 35).

(7) معجم الأدباء – للحموي (2: 346).

جرت، فصارت كالحياة لا تتم إلا بالسلامة، وكذلك العربية لا تسلم إلا لأهلها، ولقد وُلدت وما أعرف اللحن، فكنت كمن سلم من الداء ما سلم له الدواء، وعاش بكامل الهناء، وبذلك شهد لي القرآن: وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه"[1].

برع الإمام الشافعي في علوم العربية، ولا نبالغ إذا جعلناه في طبقة أئمة اللغة من أمثال الخليل وسيبويه. فكان عالماً مبرزاً فيها بشتى علومها وفنونها، قال ثعلب فيما رُوي عنه: "الشافعي إمام في اللغة"[2]. وقد روي عنه قوله عن نفسه: "ما رأيت أحداً أعلم بهذا الشأن مني، وقد كنت أحب أن أرى الخليل بن أحمد"[3].

وحدث ابن خزيمة قال: "سمعت يونس بن عبد الأعلى يقول: كان الشافعي إذا أخذ في العربية، قلت: هو بهذا أعلم، وإذا تكلم في الشعر وإنشاده، قلت هو بهذا أعلم"[4].

كان تعمقه في علوم العربية خير معين على تبحره في علوم الشريعة، حتى صار إماماً من أئمة الدين. بل رُوي عنه أنه ما أراد بالتبحر في علوم اللغة العربية إلا الفهم الدقيق لعلوم الشريعة؛ فقد دله عقله، وتوفيق الله له أنّ عليه أن يمضي دهراً من عمره في تعلم لسان العرب الذي نزلت به الشريعة. روى أبو نعيم قال: "كان مُحَمَّد بن إدريس الشافعي رجلاً شريفاً، وكان يطلب اللغة العربية والفصاحة والشعر في صغره، وكان كثيراً ما يخرج إلى البدو، ويحمل ما فيه من الأدب، فبينما هو ذات يوم في حي من أحياء العرب؛ إذ جاء إليه رجل بدوي، فقال له: ما تقول في امرأة تحيض يوماً، وتطهر يوماً، فقال: لا أدري، فقال له: يا ابن أخي: الفضيلة أولى بك من النافلة، فقال له: **إنما أريد هذا لذاك**، وعليه قد عزمت، وبالله التوفيق، وبه أستعين، ثم خرج إلى مالك بن أنس"[5].

وهذا الأمر – أعني أهمية تعلم اللغة العربية – لتكون وسيلة لتعلّم علوم الشريعة مما أكده الأصوليون عامة، وسبقهم إليه إمامهم الشافعي؛ فقد أكد في مواضع متفرقة من مصنفاته على ذلك، من ذلك قوله ﷺ: "فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما

---

(1) حلية الأولياء – لأبي نعيم (9: 88).
(2) سير أعلام النبلاء – للذهبي (19: 57).
(3) معجم الأدباء – للحموي (2: 345).
(4) نفسه (2: 345).
(5) حلية الأولياء (9: 81).

بلغه جهده، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله، وأن مُحَمَّداً عبده ورسوله، ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير، وأُمر به من التسبيح، والتشهد وغير ذلك"[1].

وقال ﷺ: "وما ازداد من العلم باللسان الذي جعل الله لسان من ختم به نبوته، وأنزل به آخر كتبه خيراً له، كما عليه أن يتعلم الصلاة والذكر فيها"[2].

وقال: "لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب وكثرة وجوهه، وجماع معانيه وتفرقها، ومن علمه انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها"[3].

وله مشاركات في بعض القضايا اللغوية منها:

مسألة: المعرب والدخيل في القرآن:

بداية كان الشافعي يرى أن (القران) اسم وليس بمهموز، ولم ويؤخذ من قرأت، ولو أخذ من قرأت لكان كل ما قُرئ قرآنا، ولكنه اسم للقران، مثل التوراة والإنجيل[4].

أما مسألة المعرب في القرآن فقد حقق الإمام الشافعي القول في هذه المسألة، ويبدو أنها من المسائل التي شغلت أهل العلم في عصره أو ربما قبله، وفقه هذه المسألة: أن أهل العلم اختلفوا فيها؛ رُوي عن ابن عباس ومجاهد وابن جبير وعكرمة وعطاء وغيرهم من أهل العلم أنهم قالوا في أحْرُفٍ كثيرة: إنها بلغات العَجَم، منها قوله: طَه، واليمّ، والطور، والرَّبانيُّون، فيقال: إنها بالسُّرْيانية. والصِّراط، والقِسْطاس، والفِرْدَوْس، يُقال: إنها بالرُّومية، ومِشْكاة، وكِفْلَيْنِ، يقال: إنها بالحبشيّة، وذهب أهلُ العربية أن القرآنَ ليس فيه من كلام العجم شيءٌ لقوله تعالى: {قُرْآناً عَرَبيّاً} [يوسف: 2] . وقوله: {بِلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِين} [النحل: 103]. وذهب آخرون: مذهباً فيه تصديقُ القَوْلين جميعاً، وذلك أنَّ هذه الحروف أصولُها عجمية كما قال الفقهاء، إلا أنها سقطت إلى العرب فأعْرَبتها بألْسِنتها وحوَّلتْها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربيةً ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب فمن قال إنها عربية فهو صادق ومن قال عجمية فهو صادق"[5].

---

[1] الرسالة (ص48) تح: أحمد شاكر – المكتبة العلمية – بيروت.

[2] نفسه (ص49).

[3] نفسه (ص50).

[4] ينظر: الرسالة (ص14).

[5] المزهر – للسيوطي (1: 231) تح: فؤاد علي – دار الكتب العلمية – بيروت – ط1 – 1998م.

أما الإمام الشافعي فقد جعل هذه المسألة من قواعد وأسس العلم بكتاب الله قال: "ومن جماع علم كتاب الله: العلم بأن جميع كتاب الله إنما نزل بلسان العرب"[1].

ثم وجه العتب واللوم على من تكلموا في هذه المسألة عن جهل وعدم دراية وفقه، فكان الأولى بهم السكوت إذ لم يفقهوا، قال ما نصّه: "فالواجب على العالمين أن لا يقولوا إلا من حيث علموا، وقد تكلم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه منه؛ لكان الإمساك أولى به وأقرب من السلامة إن شاء الله"[2].

ثم بدأ بعرض الآراء في هذه المسألة "فقال منهم قائل: إن في القران عربياً وأعجمياً، والقران يدل على أن ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب، ووجد قائل هذا القول من قَبِل ذلك منه، تقليداً له، وتركاً للمسألة عن حجّته، ومسألة غيره ممن خالفه، وبالتقليد أغفل من أغفل منهم، والله يغفر لنا ولهم"[3].

ثم يعتب على من قبل هذا القول تقليداً، دون البحث عن الدليل، وتحقيق المسألة، وقرر أن سبب الغفلة وعدم التحقيق في المسائل العلمية هو التقليد، الذي عده آفة طلبة العلم.

ثم رأيناه يعلل أو لعله يعتذر عمن ذهب هذا المذهب في كتاب الله بأنهم لما لم يعلموا أو يعرفوا بعض ألفاظ القرآن ظنوا أنها غير عربية؛ لأنهم لم يحيطوا بلسان العرب.

وتقريره في هذه المسألة أرصن، وألفاظه أعذب يقول: "ولعل من قال: إن في القران غير لسان العرب، وقُبِل ذلك منه؛ ذهب إلى أن من القران خاصاً يجهل بعضَه بعضُ العرب، ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي، ولكنه، لا يذهب منه شيء على عامتها، حتى لا يكون موجوداً فيها من يعرفه. والعلم به عند العرب كالعلم بالسنة عند أهل الفقه، لا نعلم رجلاً جمع السنن فلم يذهب منها عليه شيء، فإذا جُمع علم عامة أهل العلم بها أتى على السنن... وهكذا لسان العرب عند خاصتها وعامتها، لا يذهب منه شيء عليها، ولا يُطلب عند غيرها، ولا يعلمه إلا من قَبِله عنها، ولا يشركها فيه إلا من اتبعها في تعلمه منها، ومن قَبِلَه منها فهو من أهل لسانها"[4].

---

[1] الرسالة (ص40).

[2] الرسالة (ص41).

[3] نفسه (ص42).

[4] الرسالة (ص44).

هذا دليل الإمام الشافعي على المستوى العقلي، ثم ساق الأدلة النقلية على أن ألفاظ القرآن الكريم عربية محضة. قال: "وقد بين الله ذلك في غير آية من كتابه: قال الله: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [الشعراء: 192 – 196] وقال: {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا} [الرعد: 37]، وقال: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا} [الشورى: 7] وقال: {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الزخرف: 1 – 3]، وقال:{قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } [الزمر: 28].

فأقام حجته بأن كتابه عربي، في كل آية ذكرناها، ثم أكد ذلك بأن نفى عنه جل ثناؤه كل لسان غير لسان العرب، في آيتين من كتابه: فقال تبارك وتعالى: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} [النحل: 103]، وقال: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ} [فصلت: 44]"[(1)]. ثم في نهاية هذا البحث يحث المسلمين على تعلم لسان العربية يقول: "فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده، حتى يشهد أن لا إله إلا الله، وأن مُحَمَّداً عبده ورسوله، ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك. وما ازداد من العلم باللسان، الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته، وأنزل به آخر كتبه كان خيراً له"[(2)].

مسألة: وجوه الخطاب العربي وأنواعه:

للعرب في مخاطباتها سنن ومذاهب وفنون، تفطن الإمام الشافعي لهذه الفنون في وقت مبكر، فحصرها في نص جامع لا يكاد يخرج منها فن من فنونهم في كلامهم، ولا أعلم أحداً من علماء العربية أو الأصوليين سبقه إلى هذا التقرير الدقيق، قال الشافعي: "فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها، على ما تعرف من معانيها، وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها. وأن فطرته أن يخاطب بالشيء منه عاما ظاهرا يراد به العام الظاهر، ويُستغنى بأول هذا منه عن آخره. وعاما ظاهرا يراد به العام ويدخله الخاص، فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه. وعاما ظاهرا يراد به الخاص. وظاهرا يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره. فكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره. وتبتدئ الشيء من كلامها يبين أول لفظها فيه عن آخره. وتبتدئ الشيء يبين آخر لفظها منه عن أوله. وتكلم بالشيء تُعَرِّفُهُ بالمعنى دون الإيضاح باللفظ، كما تُعَرِّفُ الإشارةُ، ثم يكون هذا عندها من أعلى

(1) نفسه (ص46– 48).

(2) نفسه (ص48، 49).

كلامها، لانفرادِ أهلِ علمها به، دون أهل جهالتها. وتسمي الشيء الواحد بالأسماء الكثيرة، وتسمي بالاسم الواحد المعاني الكثيرة.

وكانت هذه الوجوه التي وصفت اجتماعها في معرفة أهل العلم منها به – وإن اختلفت أسباب معرفتها–: معرفةً واضحةً عندها، ومستنكرًا عند غيرها، ممن جهل هذا من لسانها، وبلسانها نزل الكتاب وجاءت السنة، فتكلف القول في علمها تكلف ما يجهل بعضه. ومن تكلف ما جهل وما لم تثبته معرفته: كانت موافقته للصواب – إن وافقه من حيث لا يعرفه – غير محمودة، والله أعلم وكان بخطئه غير معذور، إذا ما نطق فيما لا يحيط علمه بالفرق بين الخطأ والصواب فيه"[1].

فانظر إلى هذا التقرير والتفصيل الذي لا تجده عند أرباب اللغة والبلاغة والأدب، فكان سباقاً إلى هذا المنهج الفريد في العرض والاستقصاء، بحيث إنه لم يغادر وجهاً أو فناً من فنون العرب في خطابها. ثم شرع في الاستشهاد على كل ما قَرّر من القرآن ولسان العرب: شعره ونثره. ولا يتسع المقام لاستقصاء كل ما ذكره وبالله التوفيق.

شعر الإمام الشافعي وشاعريته:

كان الشافعي من أعلم الناس بالشعر والأدب، فقد كان راوية للأدب، واختص برواية شعر قبيلة هذيل، حتى بات كبار الرواة والأدباء من تلاميذه، كما سلف بشأن الأصمعي الذي قرأ ديوان الهذليين عليه.

ولما جيء به للرشيد وسأله عن معرفته بالشعر قال: "إني لأعرف طويلهُ وكاملهُ، وسريعهُ ومجتثه، ومنسرحه وخفيفة، وهزجه ورجزه، وحكمه وغزله، وما قيل فيه على الأمثال تبياناً للأخبار، وما قصد به العشاق رجاء للتلاق، وما رثى به الأوائل ليتأدب به الأواخر، وما امتدح به المكثرون بابتلاء أمرائهم... وما خرج على طرب من قائله لا أرب له، وما تكلم به الشاعر فصار حكمة لمستمعه، فقال له الرشيد: اكفف يا شافعي فقد أنفقت في الشعر، ما ظننت أن أحداً يعرف هذا ويزيد على الخليل حرفاً، ولقد زدت وأفضلت"[2].

---

[1] الرسالة (ص49).

[2] حلية الأولياء – لأبي نعيم (9: 88).

وبالرغم من علمه بالشعر ودقائقه فقد كان يجد شيئاً من الحرج في إنشاده وروايته، والإكثار منه أمام أصحابه وتلاميذه من الفقهاء، وطلاب العلم، حكى مصعب الزبيري قال: "كان أبي والشافعي يتناشدان، فأتى الشافعي على شعر هذيل حفظاً، وقال: لا تعلم بهذا أحداً من أهل الحديث فإنهم لا يحتملون هذا"[1].

لعله لمس عند بعضهم زراية الشعر؛ لما جاء في التنزيل وبعض الأحاديث ما فهم من ظاهرها أنها ذم للشعر، نحو قوله تعالى: {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ} [الشعراء: 224].

وقوله ﷺ: «لأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا يَرِيهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا»[2].

فكان الشافعي يتحرج من رواية الشعر أو إنشاده أمام بعض أصحابه؛ ممن فهم تلك النصوص على ظاهرها. وهذا من فقهه وتعقله ﷺ، فعلى الأستاذ أن يراعي المقام، وأن يكون كلامه مطابقه لمقتضى الحال، على حد تعبير البلاغيين، فلا يحدث الناس أو يتحدث أمامهم إلا بما تستوعبه عقولهم، وتقبله قلوبهم.

أو أن الشعر كان يضع من شأن العلماء إذا أكثروا منه، وهذا ما يُفهم من قوله:

وَلَوْلا الشِّعْرُ بِالعُلَمَاءِ يُزْرِي لَكُنْتُ الْيَوْمَ أَشْعَرَ مِنْ لَبِيدِ

وأشجعَ في الوغى من كلِّ ليثٍ وآلِ مهلَّبٍ وبني يزيدِ

كان الإمام الشافعي عالماً بالشعر ودقائقه، قال فيما روي عنه: "ما رأيت أحداً أعلم بهذا الشأن مني – أي الشعر – وقد كنت أحب أن أرى الخليل بن أحمد"[3].

وقد كان آية في حفظ الشعر وروايته، فإذا ما سئل عن قصيدة تدفق في إنشادها تدفق البحر، قال مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد الحكم: "ما كنت أذكر للشافعي قصيدة إلا ربما أنشدنيها من أولها إلى آخرها"[4].

أما عن **موهبته الشعرية** فقد كان موهوباً، شهد لموهبته الشعرية المهتمون بالأدب والشعر عموماً، لا سيما وأنه جمع إلى العلم بالشعر ونظمه روايته، فقد كان راوية – كما سلف، وإذا كان الشاعر راوية فإن ذلك أمر محمود عند أهل الأدب، ويفضل

---

[1] معجم الأدباء – للحموي (2: 345).

[2] صحيح مسلم (7: 50) دار الفكر – بيروت.

[3] معجم الأدباء – للحموي (2: 345).

[4] حلية الأولياء – لأبي نعيم (9: 151).

الشاعر الراوية عندهم على الشاعر فقط، قال ابن رشيق: "فقد وجدنا الشاعر من المطبوعين المتقدمين يفضل أصحابه برواية الشعر، ومعرفة الأخبار، والتلمذة بمن فوقه من الشعراء، فيقولون: فلان شاعر راوية، يريدون أنه إذا كان راوية عرف المقاصد، وسهل عليه مأخذ الكلام، ولم يضق به المذهب، وإذا كان مطبوعاً لا علم له ولا رواية ضل واهتدى من حيث لا يعلم، وربما طلب المعنى فلم يصل إليه وهو ماثل بين يديه؛ لضعف آلته: كالمقعد يجد في نفسه القوة على النهوض فلا تعينه الآلة.

وقد سُئل رؤبة بن العجاج عن الفحل من الشعراء، فقال: هو الراوية، يريد أنه إذا روى استفحل. قال يونس بن حبيب: وإنما ذلك لأنه يجمع إلى جيد شعره معرفة جيد غيره، فلا يحمل نفسه إلا على بصيرة، وقال رؤبة في صفة شاعر:

لقد خشيت أن تكون ساحراً راويةً مرّاً ومَرّاً شاعراً

فاستعظم حاله حتى قرنها بالسحر"[1].

وله أخبار وطرائف أدبية؛ منها: ما رواه أبو نعيم قال: عن الربيع بن سليمان قال: كنت عند الشافعي إذ جاءه رجل برقعة فقرأها ووقع فيها، ومضى الرجل فتبعته إلى باب المسجد فقلت: والله لا تفوتني فتيا الشافعي، فأخذت الرقعة من يده فوجدت فيها:

سل العالم المكي هل من تزاور وضمة مشتاق الفؤاد جناح

فإذا قد وقع الشافعي:

فقلت معاذ الله أن يذهب التقى تلاصق أكباد بهن جراح

قال الربيع: فأنكرت على الشافعي أن يفتي لحدث بمثل هذا فقلت: يا أبا عبدالله تفتي بمثل هذا شابا!! فقال لي: يا أبا مُحَمَّد هذا رجل هاشمي قد عرس في هذا الشهر، يعني شهر رمضان، وهو حدث السن فسأل هل عليه جناح أن يقبل أو يضم من غير وطء، فأفتيته بهذه الفتيا، قال الربيع: فتبعت الشاب فسألته عن حاله فذكر لي أنه مثل ما قال الشافعي، فما رأيت فراسة أحسن منها[2].

وروي مثله أن رجلاً جاء الشافعي برقعة مكتوب فيها:

سل المفتي المكي من آل هاشم إذا اشتد وجد بامرئ كيف يصنع؟

---

[1] العمدة لابن رشيق (1: 197) تح: مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد – دار الجيل – بيروت – ط 5 – 1981م.

[2] حلية الأولياء (9: 150).

قال: فكتب الشافعي تحته:

يداوي هواه ثم يكتم وجده ويصبر في كل الأمور ويخضع

فأخذها صاحبها وذهب بها ثم جاءه، وقد كتب تحت هذا البيت الذي هو الجواب:

فكيف يداوي والهوى قاتل الفتى وفي كل يوم غصة يتجرع

فكتب الشافعي رحمه الله:

فإن هو لم يصبر على ما أصابه فليس له شيء سوى الموت أنفع[1]

ديوان شعره:

وللإمام الشافعي ديوان شعر عده الأدباء "كنزاً من كنوز الأدب، ونبعاً صافياً يستقي منه الأبناء والآباء دروس الحكمة، وألوان التجارب الحياتية يقدمها إمام كان كالشمس للدنيا والعافية للناس...ومن يتتبع ديوانه يجد أنه كان يميل إلى المقطوعات دون القصائد، وأن شعره من السهل الممتنع، فلا تكاد تعثر فيه على غريب، ومن أجل هذا سهل الاستدلال به والاقتباس منه. ولقد امتلأت به المراجع والموسوعات اللغوية والأدبية، وتناثرت منه مقطعات في كتب الفقه والحديث، وتناقلها رواد الحكمة جيلا بعد جيل، فعاشت على كل لسان، وراح يرددها الرائح والغادي"[2].

نموذج من شعره وتحليله:

كان شعر الشافعي فخماً جزلاً، ممتلأً حكمة وموعظة ونصيحة، عميق المعاني، ينحدر عن الغريب الوحشي، ويترفع عن المبتذل السوقي، وتتخلله أساليب بلاغية، وصور وأخيلة بيانية، ومما راقني من شعره وأعجبني قوله:

دع الأيّام تفعل ما تشاءُ وطب نفساً إذا حكم القضاءُ

ولا تجزع لحادثة الليالي فما لحوادث الدنيا بقاء

وكن رجلاً على الأهوال جلداً وشيمتك السماح والسّخاء

يُغطّى بالسّماحة كلّ عيب وكم عيب يغطّيه السّخاء

---

[1] نفسه (9: 151).

[2] ديوان الشافعي – تح: مُحَمَّد إبراهيم (ص8) مكتبة ابن سينا – القاهرة.

ولا حزنٌ يدوم ولا سرور ولا بأسٌ عليك ولا رخاء

ولا تُرِ للأعادي قط ذلاً فإن شماتة الأعدا بلاء

ولا ترجُ السّماحة من بخيل فما في النار للظّمآن ماء

ورزقك ليس ينقصه التأنّي وليس يزيد في الرّزق العناء

إذا ما كنت ذا قلب قنوع فأنتَ ومالكُ الدنيا سواء

ومن نزلت بساحته المنايا فلا أرضٌ تقيهِ ولا سماء

وأرض الله واسعة ولكن إذا نزل القضا ضاق الفضاء

دع الأيام تغدر كلّ حين ولا يغني عن الموت الدواء

وهذا من بديع نظمه الذي سارت به الركبان، وانتشر في الآفاق، انظر إلى أساليب الإنشاء الطلبي المتعاقبة: دع...وطب، ولا تجزع...وكن...تستر...ولا تر....الخ، والغرض منه النصح والإرشاد، فالقصيدة في غرض عام واحد وهو النصح والتوجيه...يوجه المؤمن إلى التسليم بقضاء الله وقدره، وعدم الجزع عند نزول الخطوب، وكن سخياً جواداً، فإن الكرم يستر عيوبك، وإياك والخضوع للأعادي فإن المؤمن عزيز كريم، وعليك بالقناعة ففيها الطمأنينة والرضا، ولا تجزع لنزول الموت بساحتك فليس لابن آدم منه مفر.

ومن لطيف الأساليب البلاغية التي وردت في المقطوعة **الالتفات** من الخطاب إلى الغيبة في قوله:

إذا ما كنت ذا قلب قنوع فأنتَ ومالكُ الدنيا سواء

ومن نزلت بساحته المنايا فلا أرضٌ تقيهِ ولا سماء

والتقديم والتأخير في قوله:

وكن رجلاً على الأهوال جلداً وشيمتك السماح والسّخاء

والأصل: كن رجلا جلدا، لكنه قدم الجار والمجرور (على الأهوال) لبيان خطورتها وعظم شأنها، فينبغي التجلد والتصبر تجاهها.

ومنه تقديم (قط) في قوله:

ولا ترِ للأعادي قط ذلاً فإن شماتة الأعدا بلاء

والأصل: ولا تر للأعادي ذلا قط، لكنه قدم للعناية والاهتمام فلا ينبغي أن لا يرى الأعادي منك أي قدراً من الذل.

والخبر الابتدائي الخالي من التوكيد في قوله:

ورزقك ليس ينقصه التأنّي وليس يزيد في الرّزق العناء

لأن المخاطب خالي الذهن، ومستعد لقبول الخبر، فلا هو متردد في الخبر ولا منكر له، ولأن الخبر أمر مسلم به لا يختلف عليه اثنان.

ثم انظر إلى الخبر الطلبي؛ الذي يتردد تجاهه المخاطب ويتساءل عن حقيقته، فيحتاج إلى توكيد ليزول الشك والتساؤل من نفسه في قوله:

ولا ترِ للأعادي قط ذلاً فإن شماتة الأعدا بلاء

ومثله في القرآن قوله تعالى: {وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الّذِينَ ظَلَمُوَاْ إِنّهُمْ مّغْرَقُونَ} [هود: 37] ومنه قوله: {إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: 40].

والإسناد العقلي في قوله:

دع الأيّام تفعل ما تشاءُ وطب نفساً إذا حكم القضاءُ

فقد أسند الفعل إلى ما ليس له حقيقة، فالأيام لا تفعل في الحقيقة إنما هي زمان الفعل.

والاستعارة في قوله:

يُغطّى بالسّماحة كلّ عيب وكم عيب يغطّيه السّخاء

فقد شبه العيوب بالشيء المادي الذي يُغطى ثم حذف المشبه به وأبقى لازما من لوازمه وهو الغطاء على سبيل الاستعارة المكنية، وهي استعارة تبعية مطلقة.

وجاءت بعض المحسنات البديعية نحو: (الطباق) بين النار والماء، وأرض وسماء، وحزن وسرور، وبؤس ورخاء....إلخ. والجناس، بين القضا والفضا....

ورد العجز على الصدر نحو قوله:

ولا تجزع لحادثة الليالي فما لحوادث الدنيا بقاء

وقوله:

ولا ترِ الأعادي قط ذلاً فإن شماتة الأعدا بلاء[1]

وفي هذا كفاية، ولو ذهبنا نتتبع كل ما ورد من أساليب بلاغية في ديوانه؛ لضاق بنا المقام، ولألفيناه بحثاً يحتاج إلى أن يُفرد بالتأليف.....والله الموفق إلى سواء السبيل.

الخاتمة

هذا عَلَم من أعلامنا، ورجل من رجالات الأمة، الذين بنوا الحضارة، وأسسوا أصول المعرفة، لا أقول الإسلامية، بل الإنسانية جمعاء. والذين أخلصوا للعلم، فرفع الله قدرهم ومحلهم، وجعل لهم لسان ذكر في الآخرين. وكم من عَلَم من أعلامنا اشتهر بفن من فنون العلم، أو بنوع من المعرفة، وله باع في فنون وعلوم شتى، تحتاج إلى من ينقر عنها في بطون أمات الكتب، ويخرجها للناس لينتفعوا بها.

ومسائل اللغة والأدب التي درسها الشافعي أو أشار إليها تحتاج إلى استقصاء وإفراد بالتصنيف، وقبل ذلك تحتاج إلى همة عالية، وصبر دؤوب. لاستخراجها من بطون الكتب والموسوعات. وفي رأيي أن الشافعي لم يُعط حقه من الاهتمام والعناية الصادقة والمخلصة، التي تقترب منه وتنفذ إلى فكر وعقل وقلب هذا الإمام الجليل، الذي كان "كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس".

وإني أرى أن مجموع ما درسه الشافعي من قضايا لغوية وبلاغية يمكن أن يُؤسس منه علم لغة خاص بالعلوم الشرعية، يسهم في تطويرها، ويتخذ الدراسة الشرعية المبنية على أسس لغوية مجالاً تطبيقياً له، حيث تحتل القضايا اللغوية والبلاغية حيزاً ملحوظاً في كتب الإمام الشافعي، تكفي لتؤلف تخصصاً علمياً مستقلاً، يسهم في تطوير المنهجية اللغوية في العلوم الشرعية، ويحقق الترابط والتكامل بين مباحثها.

اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا مما علمتنا، وزدنا علماً، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

[1] ينظر: قراءة بلاغية في ديوان الشافعي – نعمان شعبان (ص932) مجلة الجامعة الإسلامية – غزة – العدد الثاني 2011م.

قائمة المصادر والمراجع

1. **إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة** – لأحمد البوصيري – دار الوطن – الرياض – ط 1 – 1999م.
2. **آداب الشافعي** – للرازي – تح: عبد الغني عبد الخالق – مكتبة الخانجي – القاهرة – ط 3 – 2001م.
3. **تاريخ بغداد** – للخطيب البغدادي – دار الكتب العلمية – بيروت.
4. **جامع بيان العلم** – لابن عبد البر – دار الفكر – بيروت – 1984م.
5. **الاحتجاج بالشافعي** – للخطيب البغدادي – تح: خليل ملا خاطر – المكتبة الأثرية – باكستان.
6. **حلية الأولياء** – لأبي نعيم – دار الكتاب العربي – بيروت – ط 4 – 1405م.
7. **دلائل الإعجاز** – للجرجاني – تح: محمود شاكر، دار المدني – جدة – ط 3 – 1992م.
8. **ديوان الشافعي**– بعناية: مُحَمَّد الزغبي – دار الجيل – بيروت.
9. **ديوان الشافعي** – تح: مُحَمَّد إبراهيم – مكتبة ابن سينا – القاهرة.
10. **الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي** – لأبي منصور الأزهري الهروي تح: مُحَمَّد الألفي – وزارة الأوقاف – الكويت – ط 1، 1399هـ.
11. **سير أعلام النبلاء** – للذهبي، تح: شعيب الأرناؤوط وآخرين – مؤسسة الرسالة.
12. **الشافعي** – حياته وعصره – لمحمد أبي زهرة – دار الفكر العربي – 1978م.
13. **صحيح البخاري** – تح: مُحَمَّد زهير، دار طوق النجاة، ط 1، 1422هـ.
14. **صحيح مسلم** – دار الفكر – بيروت.
15. **صفة الصفوة** – لابن الجوزي – تح: مُحَمَّد فاخوري، ومُحَمَّد رواس – دار المعرفة – بيروت – ط 2 – 1979م.
16. **العمدة** – لابن رشيق القيرواني – تح: مُحَمَّد محيي الدين – دار الجيل بيروت – ط 5 – 1981م.
17. **المزهر** – للسيوطي – تح: فؤاد علي – دار الكتب العلمية – بيروت – ط1 – 1998م.
18. **معجم الأدباء** – للحموي – دار الكتب العلمية ، بيروت – 1991م.